جامعة سوهاج

كلية الآداب بسوهاج

قسم اللغة العربية

﴿المحاضرة الثانية - قضية المبالغة والاعتدال﴾

في مقرر النقد العربي القديم

قسم اللغة العربية

إعداد

دكتورة/ هناء عابدين عبد اللّه

﴿قضية المبالغة والاعتدال﴾

المبالغة في العصر الجاهلي

كان الشاعر الجاهلي ميالا إلى الصدق، نفورا من الكذب، ويتعلق بالواقع ويجله، ولا يجد ما يدعوه إلى الانصـــراف عنه، ولذلك كان ينزع إلى الصـــدق في تعبيره، ويميل إلى الاعتدال في تناول المعاني الشعرية؛ فما هو إلا أن يتحرك ذهنه، أو تجيش عاطفته، فيفيض ذلك على لسانه قولا صادقا، أو قريبا من الصدق.

لقد كان شعر الشاعر في العصر الجاهلي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بحياته البسيطة يعبر عن واقعها، ويصـف أحداثها، وما يخالجه من مشـاعر تجاه هذه الأحداث، وحتى في شـعر الفخر والمديح لم يكن الشـاعر يبالغ أو يكذب، وإنما كان يتحكم في عواطفه، ويضـبط مشـاعره، لتكون أقرب إلى الاعتدال منها إلى المبالغة، وعلى هذا فقد كانت المبالغات في الفكرة أو في التصـــوير نادرة إلى حد أنه أمكن حصرها، ومما أحصاه النقاد من مبالغات في الشعر الجاهلي قول امرئ القيس:

كأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خُبَائِنَا وَأَرْحُلِنَا الجَزْعُ الَّذِي لم يِثَقَّبِ

تم القول عند قوله: الجذع ثم بالغ بقوله: الذى لم يثقب، وهذا النوع من المبالغة يسمى بـ (الإيغال)، وهو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها.

<u>وكذلك قول زهيربن أبى سلمى:</u>

كأَنَّ فُتاتَ العِهْنِ في كلِّ مَنْزِلٍ نَزَلْنَ به حَبُّ الفَنا لم يُحَطَّمِ

فقد تم الكلام عند قوله: حب الفنا، ثم قال: لم يحطم لأنه أشد لحمرته.

<u>وقول النابغة الذبيانى فى مدح النعمان بن المنذر:</u>

فإنكَ شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعَتْ لم يَبدُ منهنَّ كوكبُ

فجعله كالشمس، والملوك من حوله كالكواكب، بل وبالغ في قوله: إذا طلعَتْ لم يَبدُ منهنَّ كوكبُ.

<u>وقد بالغ النابغة أيضًا فى وصف عنق المرأة بالطول فقال:</u>

إذا ارتَعَثَتْ خاف الجبانُ ارتعاثَها ومن يَتَعَلَّق حيثُ عُلِّق يَفْرَقِ

فجعل القرط يخاف أن يسـقط من هناك فيهلك، وإنما أخرج هذا كالمثل، أي لو كان مما يقع منه الخوف لخاف.

<u>وفى هذا الصدد يقول ذو الرمة:</u>

وَالْقُرْطُ فِي حُرَّة الذِّفْرَى مُعَلَّقَة تباعدَ الحبلُ منهُ فهوَ يضطربُ

فدل بقوله: " تباعدَ الحبلُ منهُ " على طول عنق المرأة، فهذه المبالغة لائقة مسـتحسـنة؛ لأنه دل على الوصف بالشيء الذى يخص الموصوف، لا بالشيء الذى يخص غيره.

المبالغة في العصر العباسي:

ولكن الحياة في العصر العباسي اعتراها الكثير من التغير في كثير من جوانبها المادية والمعنوية، وأصبحت المثل والقيم على غير ما كانت عليه قبلا، ووجدنا الممدوحين من خلفاء وولاة وأمراء وقواد لا يرضون من الشعراء أن يخلعوا عليهم صفات وأخلاقاً كانت ترضى سابقيهم، والشعراء بدورهم حريصون كل الحرص على إرضاء الممدوحين حتى يضمنوا لأنفسهم الرزق والأمن بل الحياة.

والشعراء كذلك انقطعت الصلة بين حياتهم وبين شعرهم، وغدوا يرون الضخامة والمبالغة يتسم بهما كل شيء في العصر العباسي، وأصبح الشاعر محترفاً أكثر منه فناناً حراً ينتشى للفن لذاته. فماذا على الشعراء لو بالغوا ونظموا شعراً لا يعبر عما يحسون به أو يشعرون؟ ما دام الأمر أمر إرضاء وحصول على أموال وتأمين للعيش والحياة.

لقد وقف أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم بقوله:

إقدامُ عَمْرٍو في سَماحةِ حَاتِمٍ في حِلمِ أحنَفَ في ذَكاءِ إيَاسِ[1].

فيعترضه الفيلسوف الكندي وكان يخدم المعتصم قائلاً له: "الأمير فوق من ذكرت"، ويضطر أبو تمام – ليخرج من هذا الموقف الحرج– أن يرتجل هذين البيتين:

لا تنكروا ضربي لهُ منْ دونهِ مَثَلاً شَرُوداً في النَّدى والبَاسِ

فاللَّهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لِنُـــورِهِ مَثَلاً مِنَ المِشْكَــاة والنبْرَاسِ.

لم يعد أمراء العصر العباسي يرضون أن يمدحوا بما كان يمدح به رؤساء القبائل ورجالات الجاهلية، فهم حكام متحضرون، وأمراء رافهون يعيشون في جنبات بغداد، في مشيد القصور ورائع البنيان، ويرفلون في الدمقس والحرير ويجلسون على كراسي الملك، وسرر الخلافة يحف بهم رجال حاشيتهم، ويعيش في بلاطهم الفلاسفة والمفكرون والعلماء والفنانون؛ وقد أدرك الشعراء الروح الأدبي للعصر والذوق الفني للأمراء والقادة والحكام والولاة، فراحوا يمطرونهم بما يرضى غرورهم من مبالغات وما يغذى كبرياءهم من كذب ونفاق.

فإذا كان الفرزدق ترضى حاسته الفنية أن يصف ممدوحه زين العابدين على بن الحسين بقوله:

يُغْضِي حَياءً، وَيُغضَى من مَهابَتِه فَمَا يُكَلَّـــمُ إلاّ حِينَ يَبْتَسِمُ

وإذا كان النابغة يكتفى في وصف هيبة النعمان ورهبته بقوله:

أُنْبِئْتُ أنَّ أبا قابوسَ أوْعَدَني ولا قَرارَ علـى زَأْرٍ مـنَ الأسَـدِ

فإن أبا نواس في مدح الرشيد لا يكتفى بأقل من أن يقول ذلك البيت:

---

[1] عمرو: هو الفارس عمرو بن معد يكرب، وحاتم الطائي، أحنف بن قيس، وإياس بن معاوية قاضي البصرة

واخفَت أهلَ الشّرك حتى إنّه لتخافُك النُطفُ التي لم تخلقِ

وعلى هذا النحو بالغ الشعراء المحدثون وأسرفوا في هذه المبالغة حتى خرجوا إلى الإحالة.

يقول القاضـــي عبد العزيز الجرجاني في ذلك «فأما الإفراط فمذهب عام في المحدثين، وموجود كثيراً في الأوائل، والناس فيه مختلفون، فمسـتحسـن قابل، ومسـتقبح راد، وله رسـوم متى وقف الشاعر عندها، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء، وسلم من النقص والاعتداء، فإذا تجاوزها اتسـعت له الغاية، وأدته الحال إلى الإحالة، وإنما الإحالة نتيجة الإفراط، وشُـعبةٌ من الإغراق، والباب واحد، ولكن له درج ومراتب.

فإذا سمع المحدث قول قيس بن الملوح:

ألاَ إنَّمَا غَادَرْتِ يَاأمَّ مَالِكٍ صدى أينما تذهب به الريح يذهب

جسر أبو نواس أن يقول:

أُسرُّ إذا نحلتُ وذاب جسمي لعل الريحَ تسفي بي إليـــــه

وسهل لأبي الطيب المتنبي الطريق فقال:

كفى بجسمي نحولاً إنني رجلٌ لولا مخاطبتي إياك لم ترنى

ويرى القاضـي الجرجاني أن الشـعراء المحدثين أسـرفوا في المبالغة وقد سـهل لهم هذا الإسـراف ما رأوه من مبالغات في شعر القدماء، فطلبوا الفضل، وابتغوا الزيادة، فوقعوا في الإفراط، واجتذبهم هذا الإفراط إلى الإحالة وما فيها من نقص ومذمة.

وقد رأينا الآمدى ينقد المبالغة المسرفة وينفر منها وهو يعلق على بيت أبى تمام:

منَ الهَيفِ لو أنَّ الخلاخلَ صيِّرتْ لها وُشُحاً جَالَتْ عليا الخَلاخِلُ

وكلا النـاقدين يريـان أن المبـالغة عند الأقدمين كـانت – على الرغم من قلتهـا – متقبلـة بوجـه من الوجوه؛ لأنها تمت إلى الحقيقة بصـلـة، وكانت تنصـب على العبارة والتصـوير أكثر مما تنصـب على حقيقة الشـيء نفسـه، فلم تكن تغير من الحقيقة، أو تقلب من أوضـاعها، والموهم منها ذلك كان يجرى مجرى المثل، ويقصد به التندر والتظرف كقول الطرماح بن حكيم:

ولو أنّ برغوثاً على ظهْرِ نملَةٍ يكُرُّ على صَفَّيْ تميمٍ لولّتِ

وقول الفرزدق فى جوابه:

ولو أن عُصفوراً يمُد جنـــــــاحَه على طيءٍ في دارها لاستظلّتِ.

وقد يبالغ الشاعر في أشياء حتى يخرج فيها إلى المحال، ويخرج بعضها مخرج النوادر فيستحسن ولا يستقبح نحو قول الشاعر، المؤمَّل بن أُميل المحاربي:

من رأى مـثل حبتى تشبه البدر إذ بـــدا

تدخل اليوم ثم تـد خل أردافها غـــدا

وقد رأى الجاحظ قبلهما هذا الرأي فوقف إلى جانب الشـعراء الذين يميلون إلى القصـد والاعتدال والصدق، كما أن عمر بن الخطاب كان يعجب بالشاعر زهير لأسباب منها أنه كان «لا يمدح الرجل إلا بما هو فيه».

وحقيقة الأمر أن المبالغة إذا لم يربطها بالحقيقة والواقع سـبب ما، كانت نوعاً من التدليس، ووسيلة من وسائل الخداع والتزييف للحقائق، فالأعشى إذا بالغ في مدح قيس بن معد يكرب قال:

وَإذا تَجيءُ كَتيبَةٌ مَلمومَةٌ خَرساءُ يخشى الدارعون نِزالَها

كُنتَ المُقَدَّمَ غَيرَ لابِسِ جُنَّةٍ بِالسَيفِ تَضرِبُ مُعلِماً أَبطالَهـا

فإنه يشـعرنا بأنه – على الرغم من مبالغته بقوله " غير لابس جنة" – يتحدث عن رجل جسـور شجاع يحس الشاعر بشجاعته إحساساً قوياً صادقاً.

وإذا قرأنا هذين البيتين لأبى تمام يمدح الفارس نوح بن الحارث المخزومى:

قالوا: وينظم فارسين بطعنة يوم الهياج ولا يراه جليلا

لا تعجبوا فلو أن طول َقناته ميلٌ، إذا نظم الفوارسُ ميلا

أحسسنا أن أبا تمام بارع في التزييف والخداع، يريد أن يخدع السامعين ببطولة نوح بن عمرو، وما هو ببطل ولا مقدام، وأنه جنى على ممدوحه من حيث إنه أراد أن يصوره بطلا، فما هذه القناة التي تبلغ الميل طولا، وهي على هذا الطول منتظمة العديد من الفوارس القتلى؟ إن بيت أبى تمام الأخير يكاد يخلق على الشفاه ابتسامة السخرية.

إنها المبالغة التي كلف بها المحدثون، ورأوا فيها إرضاء لذوق الممدوحين، وفي هذا يقول القاضي الجرجاني مصـورًا مبالغات المحدثين أو غلوهم "فأما الإفراط فمذهب عام فى المحدثين.. والناس فيه مختلفون، فمستحسن قابل، ومستقبح راد، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها، ولم يتجاوز الوصف حدها جمع بين القصد والاستيفاء، وسلم من النقص والاعتداء، فإذا تجاوزها اتسعت له الغاية، وأدته الحال إلى الإحالة".

وإذا كان هناك من لا يرضـى عن المبالغة المسـرفة التي تصـل إلى الإحالة فإن هناك من النقاد من يهواها، ويقف إلى جانب الشعراء المسرفين فيها، وعلى رأس هؤلاء النقاد قدامة بن جعفر، ومن تأثر بالثقافة اليونانية بوجه عام

أما قدامة بن جعفر فقد قرأ أرسـطو، وعرف مذهب في الغلو، فقرره ودعا إليه فقال: «إن الغلو عندي أجود المذهبين، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشـعر، والشـعراء قديماً، وقد بلغني عن بعضـهم أنه قال: أحسن الشعر أكذبه، وكذلك يرى فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم» .

ويسوق الشواهد للتدليل على رأيه وشرحه، فيذكر بيت أبى نواس:

وأَخَفْتَ أَهلَ الشِّرْك حتَّى إنَّهُ لتخافكَ النُّطَفُ التي لم تُخْلَقِ

ويقابله بيت الفرزدق:

يُغْضِي حَياءً، وَيُغضَى من مَهابَتِه فَمَا يُكَلَّمُ إلاّ حِينَ يَبْتَسِـــمُ

ويفضل قدامة بن جعفر بيت أبى نواس على بيت الفرزدق؛ لأن الفرزدق «إن كان قد وصف صاحبه بما دل على مهابته، فإن في قول أبى نواس دليلاً على عموم المهابة ورسوخها في قلب الشاهد والغائب».

ويبدو أن قدامة قد فهم أن المبالغة في بيت أبى نواس مصدرها إسناد الخوف إلى النطف مع أنها ليست مصدراً للخوف أو مظنة للفزع، وأنها بناء على ذلك مبالغة مسرفة محالة، إذ قد خاف فيها ما لا يصح بحال أن يخاف، وخاف فيها في الوقت نفسه أهل الشرك الأحياء، فأصبحت المهابة عامة راسخة في قلب الشاهد (أهل الشرك) وقلب الغائب (النطف التي لم تخلق).

<u>والظاهر أن الأمر إذا أخذ من الوجهة النفسية أصبح على خلاف ذلك، وعلى خلاف ما فهم قدامة بن جعفر.</u>

- **فمن المعروف في علم النفس أن أثر الخوف يتخذ أحد مظهرين: إما أن يستخف الخائف فيفر مسرعاً، وإما أن يشله الخوف ويسلبه الحركة فيقف جامداً.**
- **وليس من البعيد إذن أن يريد أبو نواس أن الرشيد أخاف أهل الشرك، فسرى الخوف إلى أصلابهم، فلم يعودوا صالحين للإنجاب والإنسال.**
- **كما أنه ليس من البعيد أيضاً أن يريد أن الرشيد أخافهم حتى أصبح الخوف عندهم كالغريزة الثابتة التي يورثونها أبناءهم وأحفادهم، فكما أنهم خائفون، سيخاف أيضاً أبناؤهم وأحفادهم في المستقبل.**

وعلى هذا تكون مبالغة أبى نواس مستندة إلى فكرة فتخرج عن حد الغلو الذي يأتي بما يخرج عن الموجود، والذى هو مكمن السر في إعجاب قدامة ببيت أبى نواس.

<u>وأين مبالغة أبى نواس هذه من التصوير الشعرى الرائع فى بيت الفرزدق.</u>

- **فالرجل يغضى طرفه أمام الناس، وإغضاء الرجل من الحياء.**
- **والناس يغضون أطرافهم أمامه، وإغضاء الناس من الهيبة.**
- **وكما أن الحياء باعث على الهيبة فإن الهيبة الخلقية أيضاً مصدرها الحياء، وبين الهيبة والحياء استجابة طبيعية.**
- **ثم هناك الابتسامة التي تكاد تكون عتاباً للناس على تهيبهم محادثة الرجل، وفى الوقت نفسه هي إذن بالحديث وإغراء به.**
- **وإذا أضفنا إلى ذلك أن الممدوح من بيت النبوة عرفنا أن المبالغة في بيت الفرزدق استمدت من منبعها الأصيل، وعرفنا كذلك أن الشيء من معدنه لا يستغرب.**

ولكن جمال بيت الفرزدق، وتصويره الشعرى الرائع، وما في لوحته من أنيق المناظر، لا يلفت نظر قدامة ما دام يتحمس لفكرة مسيطرة عليه هي فكرة المبالغة والغلو.

ولكن قدامة في ختام كلامه عن المبالغة وتعرضه للفضيلة التي هي وسط بين طرفين مذمومين، ينعي على الشعراء المفرطين فى المدح وفى ذكر فضائل الممدوح أنهم بإفراطهم هذا مالوا بالمدح إلى الطرف المذموم، وذكر سبب هذا الإفراط فقال: "وليس ذلك كما قدمنا القول فيه في باب الغلو في الشعر من أن الذى يراد به إنما هو المبالغة والتمثيل لا حقيقة الشيء".

وهذا الكلام معناه أن قدامة يضع للغلو حداً، ولا يرضى عنه بالإطلاق، وإنما يريده أن يكون مبالغة وتصويراً في العبارة لا في حقيقة الشيء، وعلى ذلك فالمبالغة تكون مقبولة إذا كانت في التمثيل والتصوير وفخامة العبارة وتلوينها، وتكون ممقوتة إن تناولت حقيقة الشيء

ويورد قدامة مثالين يوضح بهما فكرته، قال كثير عزة:

عَلى ابنِ أَبي العاص دِلاصٌ حصينة ٌ أجادَ المُسدّي سَرْدَها وأَذَالَـــها

يؤودُ ضعيفَ القـــوم حملُ قتيرِها ويستظلعُ الطِّرفُ الأشمُّ احتمالَها

فلقد مدح كثير عزة الخليفة عبد الملك بن مروان بالشجاعة والإقدام، وصور إقدامه وشجاعته بأنه يتحصن وراء درع للحرب صلبة قوية لا تخترق، وإن الذي صنع له هذه الدرع حذق نسجها، وإن رؤوس مساميرها يتمنى الرجل الضعيف حملها لتحفظه من الشر وتقيه الأذى، بينما الرجل القوى لا يقدر على حملها.

و لكن الخليفة عبدالملك لا يرضى عن هذا المدح، وينتقد الشاعر وينبئه بأن الشاعر الأعشى أقدر منه حينما مدح بالشجاعة قيس بن معد يكرب ملك كنده، فقال :

وإذا تجيءُ كتيبةٌ ملمومةٌ خرساءُ يخشى الدارعون نزالها

كنتَ المقدَّمَ غيرَ لابسِ جنّةٍ بالسّيْفِ تَضْرِبُ مُعْلِماً أبْطَالَـــهَا

ومعنى البيتين، إنه عندما تأتى الكتيبة المتجمعة من الجيش، ويرهب منظرها الناس، ويخشى الفوارس الشجعان منازلتها، فإن قيس بن معد يكرب لا يهابها، بل يسرع لمنازلتها غير لابس درعاً، ويضرب الفوارس ضرباً شديداً، ويطعنهم طعنات قوية باقية الأثر.

فيقول كثير عزة للخليفة: إن المعنى الذي قصدته أكرم من المعنى الذي قصده الأعشى، فقد وصفتك بالتأهب وهو من الحزم، ووصف الأعشى صاحبه بعدم المبالاة وهو من الخَرَق.

وتصوير الأعشى يثير انفعال الدهشة والغرابة لما في بيتيه من المبالغة التي جعلت قدامة يستحسن نقد عبد الملك بن مروان فيقول: «والذي عندي في ذلك أن عبد الملك أصح نظراً من كثير.. لأنه قد تقدم من قولنا في أن المبالغة أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط».